الإنسان والإله : قضية الثالوث

الشيخ مالك وهبي

لا يمكن لأي حوار فعّال بين الأديان أن يغفل القضايا العقائدية انطلاقا من احترام كل طرف لما يعتقده الطرف الآخر ومن استعداد نفسي للاعتراف بما يظهر من الآخر أنه حق . ففي البدء، كل عقيدة يمكن أن تكون صحيحة كما يمكن أن تكون باطلة ، والهدف هو الوصول الى الحقيقة واعتناقها أنى كانت تلك الحقيقة ، وإلا تحول الحوار الى جدل عقيم، والعقيدة الى صنمية، والفكر الى عناد ، لذلك ستحاول هذه الدراسة الإطلالة على قضية الثالوث في الديانة المسيحية عبر المجامع المسكونية وصولا إلى مناقشتها وعرض براهينها وكيفية الرد عليها.

تتعلق هذه الدراسة بمحور " الإنسان والإله " ، لكن على أساس النظر الى كل منهما على حدة بل من جهة العلاقة بينهما ، وأرغب في استبداله بتعبير: " الإنسان والله " ؛لأن كلمة الإله اخذت في التاريخ البشري حيزا أوسع من المعنى الذي نقصده بلفظ الجلالة: "الله"،فالله اسم لم يطلق إلا على صاحب القدرة المطلقة، والملك المطلق، وواجب الوجود، بينما كلمة الإله اخذ فيها نحو عموم يستوعب كل معبود بحق او باطل. وبهذا المعنى استعمل في قوله تعالى : " أفرأيت من اتخذ الهه هواه "(الأحقاق ٢٣) .

وقد انشغلت الإنسانية عموما في البحث عن هذه العلاقة انشغالا يفرضه العقل ما دام قد أقر بوجود الله تعالى وسلطانه المطلق ونعمه التي لا تحصى. وكان التساؤل عن هذه العلاقة تارة بمستوى ما يجب أن تكون وتارة بمستوى ما نأمل ان تكون . وبين "ما يجب" و " ما نأمل " مساحة واسعة تختلط فيها الحقائق بالأوهام، فكان لا بد من سلاح فكري متين قاطع يميز بينهما .

تمثل النبوة مظهرا من مظاهر العلاقة بين الله والانسان على مستوى ما يجب أن يكون، دورها التكلم باسم الله وإعلام الناس ما يريده منهم وما لا يريد. ومن النبوة تفرع بحثٌ انه كيف يكتسب شخص ما مرتبة النبوة؟، وكيف يتواصل هو نفسه مع الله؟، وبعبارة أخرى: كيف يظهر الله تعالى لهذا النبي؟ .

في هذا الأمر الخطير، اتجهت المسيحية نحو الاعتقاد بالظهور الحسي والتجسد، وعلى أساس هذه العلاقة آمنت بالثالوث في عين إيمانها بالتوحيد وفق تفسيرها له . ففي قاموس الكتاب المقدس الصادر عن مجمع الكنائس الشرقية حديث عن طبيعة الله أنه واحد في عين أنه ثلاثة أقانيم متساوية في الجوهر : الله الآب ، والله الإبن، والله الروح القدس؛ فالآب هو الذي خلق العالمين بوساطة الابن، والابن هو الذي أتم الفداء وقام به ، والروح القدس هو الذي يطهر القلب والحياة ، غير أن الأقانيم الثلاثة تشترك معا في جميع الأعمال الإلهية على السواء، وتطلق الصفات الإلهية على كل أقنوم من هذه الأقانيم الثلاثة على حدة . وذكر أن وحدة الله ظاهرة بوضوح في العهدين القديم والجديد، وأعظم داع لإبراز وحدة الله هو إظهار خطأ إشراك آلهة أخرى معه ، ومنع عبادة الأوثان التي كانت كثيرة الشيوع في الأزمنة الأولى قديما [١]. وابن الله، لقب أطلق على السيد المسيح في العهد الجديد ما يقرب من ٤٤ مرة عن يسوع المسيح، وهو يدل على العلاقة القوية المكينة بين الآب السماوي والابن الأزلي[٢].

ويذكر أن أبناء الله لقب ورد للملائكة؛ لأن الله هو خالقهم وضابطهم، وقد دعي آدم ابن الله؛ لأن الله خلقه مباشرة، ودعي شعب إسرائيل ابن الله أو أبناء الله بما أنهم كانوا موضوع محبته الخاصة وعنايته، واستعمل هذا التعبير " أبناء الله " في العهد الجديد عن المؤمنين بالله بنوع خاص . فيصبح المؤمنون أبناء الله بالميلاد الجديد، إنهم مولودون من الله بالمعنى الروحي، وعليهم أن ينموا في مشابهتهم لله في القداسة والمحبة، وقد صار المؤمنون أبناء الله بالتبني[٣].

ويتحدث في موضع آخر عن الثالوث بقوله : عرف قانون الإيمان هذه العقيدة بالقول: "نؤمن باله واحد الآب والابن والروح القدس، إله واحد، جوهر واحد، متساوون في القدرة والمجد " . في طبيعة هذا الإله الواحد تظهر ثلاث خواص أزلية ، يعلنها الكتاب في صورة شخصيات (أقانيم) متساوية . ويمكن أن نلخص العقيدة في هذه النقاط الست التالية:١ – الكتاب المقدس يقدم لنا ثلاث شخصيات يعتبرهم شخص الله . ٢ – هؤلاء الثلاثة يصفهم الكتاب بطريقة تجعلهم شخصيات متميزة الواحدة عن الأخرى. ٣ – هذا التثليث في طبيعة الله ليس موقتا أو ظاهريا، بل أبدي وحقيقي . ٤ – هذا التثليث لا يعني ثلاثة آلهة، بل إن هذه الشخصيات الثلاث جوهر واحد . ٥ – الشخصيات الثلاث الآب والابن والروح القدس متساوون . ٦ – ولا يوجد تناقض في هذه العقيدة ، بل بالأحرى إنها تقدم لنا المفتاح لفهم باقي العقائد المسيحية . ولقد كانت هذه الحقيقة متضمنة في تعليم المسيح[٤].

نلاحظ في هذه المقاطع التي نقلناها انه في حين تصريحه بكون الله هو كل واحد من هذه الثلاثة ، فإن هذه الثلاثة متمايزة بشكل حقيقي عن بعضها، وهو يقتضي التمايز في ذات الله أو في شخصه، مهما شئت فعبر، وهذا لا يمكن أن يكون إلا بنحو التعدد الحقيقي بنحو الاستقلال، فيكون لله تعالى ثلاث ذوات؛ لأنه لو كان بنحو التركيب، لكان عبارة عن ثلاثة اجزاء، كل منها كامل الوجود والصفات، ويكون كل منها هو الله، وهذا لا يمكن مع فرض التركيب. اذ لا بد من نحو ترابط وافتقار كل جزء الى الجزء الآخر ليتم التركيب حتى وان افترضنا انه تركيب حقيقي. ولو كان المقصود بالتعدد محض الاعتبار – كما هو الحال عندنا في مسألة الصفات – فإنها تتعدد بحسب المفاهيم مع كونها عين الذات لبطل القول بالتمايز بين الأشخاص؛ لأن الصفات لا تشخص لها الا تشخص الله ووجوده. وليس في الوجود وفي ذات الله أي تمايز حتى بحسب الصفات. فلو كان هذا المقصود، فمع انه لا يتلاءم مع كلامه، يلزم بطلان التثليث؛ ولهذا اعتبر فيما يأتي من كلام له القول بالتعدد الاعتباري بدعة .

ويتحدث في موضع آخر عن الروح القدس فيقول : هو روح الله[٥].

وفي كتابه "أضواء على المسيحية" يتحدث متولي يوسف شلبي عن حضور التوحيد بالمفهوم الاسلامي في التاريخ المسيحي، وبالأخص في بداياته. الا أن القائلين به أقصوا من الساحة المسيحية بفعل الترهيب والاضطهاد الذي لاقوه، وبفعل تسلط المجامع على العقول، فمارست سلطتها على مستوى الأفكار، وكانت تملك السلطة الوضعية الكافية لإجراء كل ذلك؛ حتى آل الأمر الى حالنا التي نشهد فيها حضورا للتثليث يكاد يكون من غير منافس . وقد تولدت فكرة الثالوث عن المجامع المسيحية من خلال تفسيرات القساوسة والأساقفة في المجامع المذكورة بعد أن لم تكن عقيدة التثليث حاضرة في التعاليم التي جاء بها السيد المسيح، بل ولا في تعاليم الإنجيل في حدود نصوصه الدينية[٦]. وهذا ما تم الاعتراف به في قاموس الكتاب المقدس : ولقد كان يقين الكنيسة وإيمانها بلاهوت المسيح هو الدافع الحتمي لها لتصوغ حقيقة التثليث في قالب يجعلها المحور الذي تدور حوله كل معرفة المسيحيين بالله في تلك البيئة اليهودية أو الوثنية وتقوم عليه . والكلمة نفسها " التثليث أو الثالوث " لم ترد في الكتاب المقدس. ويظن أن أول من صاغها واخترعها واستعملها هو ترتليان في القرن الثاني للميلاد . ثم ظهر سبيليوس ببدعته في منتصف القرن الثالث، وحاول أن يفسر العقيدة بالقول: " إن التثليث ليس أمرا حقيقيًا في الله لكنه مجرد إعلان خارجي ، فهو حادث مؤقت وليس أبديا " . ثم ظهرت بدعة أريوس الذي نادى بأن الآب وحده هو الأزلي، بينما الابن والروح القدس مخلوقان متميزان عن سائر الخليقة. وأخيرا ظهر أثناسيوس داحضا هذه النظريات وواضعا أساس العقيدة السليمة التي قبلها واعتمدها مجمع نيقية في عام ٣٢٥ ميلادية . ولقد تبلور قانون الإيمان الأثناسيوسي على يد أغسطينوس في القرن الخامس ، وصار القانون عقيدة الكنيسة الفعلية من ذلك التاريخ إلى يومنا هذا . . وأخيرا؛ نود أن نشير إلى أن عقيدة التثليث عقيدة سامية ترتفع فوق الادراك البشري، ولا يدركها العقل مجردا؛ لأنها ليست وليدة التفكير البشري، بل هي إعلان سماوي يقدمه الوحي المقدس ، ويدعمه الاختبار المسيحي . وفي سبيل قبول هذه العقيدة واعتناقها لا بد من الاختبار العميق للحياة المسيحية " [٧].

والمجامع التي لها علاقة بالتثليث أربعة هي : مجمع نيقية الاول المنعقد في ٣٢٥ م . مجمع قسطنطينية الأول المنعقد في ٣٨١ م. مجمع أفسس المنعقد في ٤٣١ م . مجمع خليكدونية المنعقد في ٤٥١ م[٨] ، وهو أقرب المجامع لظهور الاسلام .

أما مجمع نيقية؛ فهو المجمع الأول الذي له أثر بعيد في حياة التدين المسيحي، فقد

انعقد بعد ان اختلفت الطوائف المسيحية في شخص المسيح ، هل هو رسول نبي من عند الله فقط ؟ أو هل هو يملك منزلة أعلى من الرسالة فهو بمنزلة الابن ، وإن لم يكن ابنا حقيقيا ؟، أو، هل هو حقيقة ابن الله ؟. أما الكنيسة المصرية في الإسكندرية فكانت تقول بألوهية المسيح ، ولم يخالف من المصريين الا أريوس الذي كان يجاهر بأن المسيح ليس ابنا لله ، وانه مخلوق، وقد كان الأب اذ لم يكن الإبن . وكان تأثير أريوس قويا حتى انتشر قوله، وكان العصر عصر تخفيف الاضطهاد عن النشاط المسيحي، بل وعهد احتضان السلطة للمسيحيين، وهو عهد قسطنطين الملك الذي تدخل في الخلاف وأراد حسم النزاع فدعا إلى عقد مجمع نيقية ٣٢٥ م ، وأرسل بنفسه رسائل إلى الفرق المتخاصمة : أريوس نفسه وبطريرك الإسكندرية . وجمع قسطنطين بينهما ، ولكن الاجتماع أسفر عن إخفاق في المحادثات ، فانتقل الموقف إلى قمة أعلى ، وهو عقد مجمع نيقية ، لفض النزاع القائم بين الموحدين المائلين إلى فكرة أريوس وغيرهم . فاجتمع في مدينة نيقية ثمانية وأربعون وألفان من الأساقفة (٢٠٤٨) من مذاهب مختلفة، أحصاها بعضهم الى ستة مذاهب، أو سبعة، محورها النظرة الى المسيح (ع) وصفته. لكن لم يتم اجتماع هذا العدد كله، بل اقتصر عدد الحضور على (٣١٨) أسقفا، الذين قالوا بمقالة بولس الرسول؛ أي بألوهية المسيح (ع)، وتم عزل الباقين بعد سلسلة اجتماعات تمهيدية أبان فيها المتخاصمون عن مذاهبهم وحججهم، ودار بينهم نقاش حاد وعنيف حتى اقتنع قسطنطين بمقالة بولس، فكان الاجتماع النهائي لأصحاب تلك المقالة، وبهذه الأقلية صدرت القرارات التالية :

١- الكنيسة الرسولية تحرم القول بأن الزمن قد خلا من ابن الله بتاتا . ٢ - طرد كل من يخرج على هذه العقيدة[٩].

ويرى الدكتور أحمد الشلبي أن بولس كان في بادئ الامر من أبرز وأنشط المضطهدين لفئة الحواريين القليلة العدد ، ثم اعتنق المسيحية فجأة ، وانه اخذ يقرب إلى عقول تلاميذه الفكرة الذاهبة إلى أن شأن عيسى كشأن أوزوريس، كان ربا مات ليبعث حيا وليمنح الناس الخلود[١٠]. وهكذا وضع بولس بذرة ألوهية المسيح . ويذكر أيضا أن قسطنطين أصدر أمره بإخراج الرؤساء الروحانيين الموحدين ، ونفى الكثيرين منهم ، وقتل أريوس مع بعض من أيدوا رأيه. وعند كتابة نص القرار اعترض أكثرهم على عبارات المساواة بين الآب والابن ولكنهم خافوا أن ينزل بهم ما نزل بغيرهم ، فوضعوا إمضاءاتهم على هذه الوثيقة[١١].

اما المجمع الثاني وهو المجمع القسطنطيني الأول فقد انعقد لبحث علاقة الألوهية

بالروح القدس وكانت قد صعدت في آفاق الفكرة الثقافية المسيحية فكرة يحملها القسيس (مكدرنيوس) ملخصها: (أن الروح القدس ليس بإله ، وإنما هو مخلوق مصنوع ، وروجت هذه المقالة وشاعت فلقيت في المجتمع نوعين من الناس : ١ - الموحدين أصحاب أريوس ، وأوسابيوس ، فتقبلوها بقبول حسن ، ونشروها وروجوها . ٢ - المؤلهين الذين خالفوها وحاربوها ، وعلى رأس هذا الفريق بطريرك الإسكندرية. اجتمع هذا الفريق بما له من سلطة دينية عند الملك ، وأوعز إليه بعقد مجمع لذلك حضره خمسون ومائة أسقف في القسطنطينية وقرر ما يلي: أولاً: أن الروح القدس هي روح الله وهي حياته ، فهي من اللاهوت الإلهي . ثانياً: لعنة مكدونيوس وأشياعه ، وكل من يخالف هذا القرار من البطاركة وغيرهم . . . الخ[١٢].

أما مجمع أفسس الأول؛ فقد انعقد بهدف تفسير التقاء الأقانيم الثلاثة والعلاقة بينها بعد أن عجّ المجتمع بالنظريات التي تفسر علاقات الأقانيم بعضها ببعض ، وبرز مذهب نسطور بطريرك القسطنطينية الذي رأى ان هناك أقنوما وطبيعة ، فأقنوم الألوهية من الآب، ونسبة الألوهية تكون إلى الأب ، وطبيعة الإنسان وهو مولود من مريم ، إذاً فمريم أم الإنسان وليست بأم الله ، والمسيح الذي ظهر بين الناس متحد بالمحبة مع الابن ، والعلاقة بين الله وبين ابنه المحبة ، والمسيح الظاهر ليس إلها ولكنه مبارك بما وهبه الله من الآيات والتقديس والعصمة والالهام والعلم، واعتبر كلام نسطور هرطقة . وعلى العادة خرجت جموع الأساقفة يعارضون فكرة نسطور في تفسيره للأقانيم ، وقوله ببشرية المسيح ، وفي مطلعهم أسقف رومية ، وبطريرك الإسكندرية ، ودارت بينهم مكاتبات بشأن عقد مجمع للنظر في بدعة نسطور ، فاتفقوا على عقد مجمع في أفسس لبحث هذا الموضوع . ولم يحضر نسطور هذا المجمع لما علمه من النية حول لعنه وطرده ، واتخاذ قرار ضد مذهبه ، وكذلك تبعه أساقفة أنطاكية ، فبقي من المتراسلين لعقد الاجتماع بطريرك الإسكندرية ، وأساقفة رومية ، وبيت المقدس . وفي أفسس عام ٤٣١ م انعقد المجمع فحضره مئتا أسقف لا غير ، فقرر أن مريم العذراء أم الله وأنها ولدت إلهنا يسوع المسيح الذي مع أبيه في الطبيعة ، ومع الناس في الناسوت والطبيعة . وأقروا بطبيعتين للمسيح : واحدة لاهوتية، والأخرى ناسوتية بشرية . كما أقروا لعن نسطور ونفيه إلى مصر[١٣].

أما مجمع خلقيدونية؛ فقد انعقد بسبب التشويش الذي حصل جراء تقرير طبيعتين للمسيح: لاهوتية ، وناسوتية فاستمر الجدل لا سيما والفريق المعارض أخذ ينشر مذهبه حتى سافرت مبادؤه إلى الموصل والفرات . وعلى الجهة المقابلة نرى بطريرك الإسكندرية

يخرج بمذهب جديد في تفسير طبيعة المسيح ، فيقول : إنهما طبيعتان في طبيعة واحدة ، إنهما اللاهوت والناسوت التقيا في المسيح ، ولهذا عقد بطريرك الإسكندرية مجمع أفسس الثاني وقرر فيه ذهابه الى أن للمسيح طبيعة واحدة اجتمع فيها اللاهوت ، والناسوت . فغضبت الكنيسة الكاثوليكية وسمت هذا المجمع بمجمع اللصوص ، وعارضه بطريرك القسطنطينية معارضة شديدة، وانسحب من المجلس، وأعلن عدم احترامه لقرارات المجمع ، فأمر رئيس المجمع بحرمانه وطرده ، وحدث لذلك شغب وصخب وعراك شديد وعنيف، وبرزت أفكار دينية حول صحة انعقاد مجمع أفسس الثاني ، ومدى سلطانه التشريعي ، ومدى الاحترام الذي تناله قراراته ، وقيمة القرارات الحرمانية التي يصدرها : هل تحترم وتعتبر نافذة المفعول ، أو ملغاة ؟ لكل هذا عمّ البيئة المسيحية نزاع وعراك، وفوضى فكرية ودينية، فأرادت ملكة الرومان وزوجها إنهاء ذلك الشغب ، فدعت حكومتها إلى عقد مجمع في مدينة خلقيدونية في عام ٤٥١ م حضره (٥٢٠) أسقفا ، تحت إشراف زوج الملكة . وقد ساد اجتماع هذا المجمع صخب وفوضى، ولدته مشكلة اقتراح إخراج ديسكورس بطريرك الإسكندرية بتهمة أنه عقد مجمع أفسس الثاني بغير إذن من الكرسي الرسولي المقصود به (بابا روما) ، ولكن مندوبي الحكومة رفضوا هذا الاقتراح ، فوقع بسبب ذلك ألوان عديدة من المشاجرات والمنازعات . وقد قرر هذا المجمع أن المسيح فيه طبيعتان منفصلتان لا طبيعة واحدة ، وأن الألوهية طبيعة وحدها ، والناسوت طبيعة وحده، التقتا في المسيح. كما قرر لعن نسطور ، ولعن ديسكورس ، وكل من يشايعهم في مقالتهم ، ولعن وإبطال قرارات مجمع أفسس الثاني الذي كان قد عقده ديسكورس بطريرك الإسكندرية ، والذي قرر فيه أن للمسيح طبيعة واحدة التقى فيها اللاهوت والناسوت ، وقرر أيضا نفي بطريرك الإسكندرية ديسكورس إلى فلسطين . وقد ظهر على أثر ذلك مذهب جديد ، وهو مذهب يعقوب البراذعي وفيه يدعو إلى مذهب الكنيسة المصرية التي ترى أن المسيح له طبيعة واحدة على خلاف ما قرره المجمع الرابع الذي انعقد في خلقيدونية عام ٤٥١ م ، وذلك في خلال القرن السادس الميلادي[١٤].

والملفت أن الكثير من المعتقدات المسيحية تولدت من مجمعات انعقدت بعد أكثر من ألف سنة على ولادة السيد المسيح (ع) مثل إقرار امتلاك الكنيسة البابوية للغفران تمنحه لمن تشاء حيث أقر في مجمع انعقد في روما في العام ١٢١٥ ميلادي[٥] .

مناقشة التثليث :

أوافق على قول من يقول: لا يمكن الالتزام بالثالوث من دون أن ربطه بالتوحيد كلازم من لوازمه [١٦]. واذا كان الثالوث أمرا صحيحا، وجب أن يكون كذلك في كل تاريخ الأديان؛لأنه ليس قضية تشريعية فقهية لتتغير بتغير الشرائع ولتختلف باختلاف الظروف،بل هي قضية عقائدية ان ثبتت تثبت منذ الأزل، ولأن الله تعالى لا تختلف ذاته بين حال وحال ، وحينئذ يكون عدم اعتقاد الأديان السابقة على المسيحية بالتثليث دليلا على بطلانه؛لأنهم يؤكدون صحة تلك الأديان .

وأيضا اذا وجب أن يكون الثالوث عقيدة غير مختصة بالمسيحية على افتراض صحتها ، وجب التصريح به في الكتب الدينية السابقة وفي الاناجيل،مع أنها تعترف بعدم وجود هكذا تصريح ؟ وهنا يتساءل : كيف يهمل التصريح بهكذا مبدأ مهم وجوهري في الدين،ويتكل فيه على كلمات قليلة نسبيا، للذات دلالات بعيدة،لا ينتبه لها الا بتكلف،لا يلتفت اليها العقل خاصة،وانه يراها أمرا مستحيلا،وهو ما يحيج القضية الى تكثيف التنصيص عليه وبيانه لرفع الاستحالة على الأقل ، وافتقاد النصوص الدينية السابقة على المسيحية لأي حديث عن الثالوث ، وافتقاد المسيحية نفسها لنصوص بتلك المثابة دليل آخر على بطلانه .

ومع أن القرار المسيحي الرسمي يجعل المسألة بعيدة عن إدراك العقل، ومع أنهم يعترفون بأن المسيحية لم تنجح في التكلم عن حضور الله في شخص يسوع على نحو يجعل من المستحيل اتهامها بالوثنية[١٧]، سعى بعضهم لتقريب فكرة الثالوث عقليا،وهو سعي ينم عن احساس بالثغرة التي أهملها التاريخ المسيحي عموما، والأناجيل الموجودة خصوصا ، فقيل : إن الله يكشف عن ذاته للانسان لذا كان لا بد لهذا الكشف أن يكون ملائما للهدف.وبما ان الانسان هو المقصود بهذا الكشف وجب أن يكون قادرا على قبول حقيقة الله واستبطانها؛أي استيعابها في داخل كيانه؛ فالله هو الذي ينقل ذاته المكنونة الى الإنسان [١٨] مع أن هذه المقدمات لا تزيد عن كونها مضامين غير مبرهن عليها وعلى إمكانها، فإذا كانت حاجة الانسان الى ربه والتواصل معه تقتضي أن يكشف الله عن ذاته للانسان،واذا كان لا بد أن يكون هذا الكشف ملائما للهدف، كانت النتيجة أن الله تعالى يكشف عن ذاته بمقدار الحاجة، وليس عن تمام ذاته فينقلها الى الانسان.وهل الكشف لا يكون الا بأن تحل الذات في الإنسان، أو يمكن من خلال وسيلة إدراك معينة ولو حضورية

من دون حاجة الى التوحد أو الحلول أو التجسد مهما شئت فعبر؟

يركز بعض الباحثين المسيحيين على فكرة نفخ الروح في الانسان،وأن ذلك يقتضي ان يحمل الانسان في ذاته جزء من الكيان الالهي[١٩]. وهذه أيضا قضية تحتاج في نفسها الى برهان كون الروح المنفوخة هي جزء من الكيان الالهي،مع أن حديث الجزئية هنا حديث عن التركيب في الذات الإلهية وهو مناف للتوحيد ، يضاف الى ذلك أن لازمه كون النبي آدم (ع) قد تجسد فيه الله تعالى، بل هو أولى، فإن آدم ولد من غير أب،ولا أم،بينما السيد المسيح (ع) ولد من أم، وهم لا يعترفون بهذا المقام لغير السيد المسيح (ع) .

وقيل : "لو كان الله قدرة كيان مطلقة بدون تمييز في ذاته، لما كان للكائنات المخلوقة أي موضع الى جانبه،فالمطلقية التي لا تمييز فيها تقصي أي كائن مستقل "الى جانب" الله، أو "بإزائه" وفي هذه النظرة يغدو كل تعبير من مثل: "الله والخليقة"، أو "الله والإنسان"، تعبيرا متناقضا في ذاته. فالواحد المطلق والكل الشامل لا يمكن أن يعطف عليه أي كائن آخر. واذا كانت ثمة خليقة، فيجب أن تكون اما جزءا إلهيا؛ أي انبثاقا منقوصا من الألوهة... بدون استقلال حقيقي، فتكون بإزاء الله في الظاهر فقط، واما – وهذه إمكانية أخرى– تقلص مطلقية الله أوحتى الغاؤها فمن خلال خليقة مستقلة ينصب بازاء القدرة الالهية الواحدة القائمة بذاتها، "شيء" ما، تعود اليه استقلالية على الأقل نسبية؛ وبذلك يقام بإزاء الكائن الإلهي القائم بذاته شيء ولو زهيد، كائن له قوام على الاقل سلبي فيه تظهر قدرة الله بيد أن ذلك يؤدي الى إرباك في مفهوم الله كقدرة بها يقوم كل شيء[٢٠].

وهذه الكلمات تدل على فهم لله تعالى مختلف عن فهمنا له، فالله تعالى ليس وعاء، وليس ظرفا، لا تنطبق عليه معايير المكان والزمان. وللوجود مراتب، لا علاقة لها لا بالزمان، ولا بالمكان، وبهذا يزول التساؤل الذي انطلقت منه تلك الكلمات انه لو كان مطلقا لما كان للكائنات أي موضع الى جانبه؛فهذا تصور مادي لله تعالى،تم تأسيسه من دون أي بيان . وبهذا تسقط الصورة الثالوثية التي قيل عن معناها : "ان الله يحقق حياته الالهية الباطنة في تبادل المحبة،فهو ليس مطلقا قائما في ذاته،بل هو وحدة في شركة، ينال فيها كل من الاقانيم الالهية كيانه الالهي الآخر،ويمنحه كيانه. فالأقانيم في الله (وهي محض علاقات في الأخذ والعطاء) قائمة في عمق كيانها نفسه،بحيث يعطي كل منها الآخر مجالا الى جانبه، وفي هذا المجال ينفتح على كل من الأقنومين الآخرين. وهذا يعني، بالنظر الى الخليقة، ان المجال الذي يفسح فيه الله على نحو ما "الى جانبه" للخليقة ليس أول مجال يفسحه، بل ان هذا المجال قائم في الله نفسه[٢١].

وهذه العبارات ناطقة بالتعدد الحقيقي؛لأن العلاقات في الأخذ والعطاء لا يمكن أن تكون بين أمر وذاته،ولا يمكن أن نفترض وحدة في شركة ان كان التغاير اعتباريا،اذ الشركة تفترض تعددا حقيقيا وتغايرا واقعيا،والا فلا شراكة بمحض تعدد العناوين والأسماء. وكون الله محبة لا يستلزم أن يهب نفسه أو ذاته،فهذه كلها مقولات تحتاج الى براهين لم يتم ذكر أي منها. وكون الله محبة لا يستلزم حاجته الى الانسان ليتاح له ان يكون محبة . بل كون الله تعالى محبة، أوكرما هي نفسها فيض تستدعي وجود مفاض عليه مخلوق يتنعم بكرم الله تعالى ، وفرق بين أن نقول:إن الله يحتاج للانسان،وبين ان نقول:إن الفيض الالهي المطلق يؤدي الى الخلق باعتباره كرما ونعمة للمخلوق .

نحن نؤمن بضرورة أن يكشف الله تعالى ما يريده للانسان،وهذا يتوقف على نحو من انحاء التجلي الإلهي على الانسان ، لكن هذا لا يقتضي ما قيل:إنه" اذا كانت كلمة الله يجب ان تصل الى الانسان كما هي، أي ككلمة إلهية، وليس بوجه منقوص،من خلال وساطة مخلوقة،فعلى الله ان يستخدم وسيطا مخلوقا يوصل كلام الله بشفافية وصفاء، وعلى الله ان يمنح هذا الوسيط المخلوق صورة تمكنه من أن ينقل كلمته، الالهية كاملة بدون تغيير. مثل هذا الوسيط، هو الإنسان مع طاقته الروحية، التي تؤهله لأن يكون منفتحا على الله، بحيث يستطيع الله أن يستخدم وساطته للتعبير عن كلامه الإلهي" ... إن أسمى مظاهرها [يسوع المسيح بحسب المفهوم المسيحي ظهرت] سمة الشفافية هذه التي يمكن ان يتمتع بها كائن انساني ففيه اتخذت الكلمة الالهية طبيعة انسانية و"امتلكتها" الى حد ان كلمة الله ظهرت كاملة في تلك الطبيعة .. [٢٢].

والسبب في عدم الاقتضاء واضح لأن وصول الكلمة كما هي لا يتوقف على التجسد،والتلازم يحتاج الى دليل لم يتم عناء بيانه،بل الدليل على عدم التوقف موجود ، فقد وصلت كلمة الله تعالى عبر أنبيائه ورسله الى الناس قبل المسيحية كاملة تامة من دون أن يدعي احد أي نحو من انحاء التجسد . والتجلي الإلهي المطلوب في الرسل والأنبياء يختلف كليا عن مسألة التجسد . على أن كلمة الله مجرد فعل من أفعاله سبحانه وتعالى، فلا بد أن نفترض دائما انه اذا فعل فعلا وجب أن يكون مطلقا لا حدود له،فلو رزق الله زيدا وجب ان يكون رزقا مطلقا، لا ينتهي. ولو كانت الكلمة تستلزم الخلود والأزلية لوجب أن تكون كل أفعال الله تعالى كذلك، وكل الخليقة هي فعل من أفعاله تعالى منتسبة الى كلمته ورحمته ومحبته وقدرته، فوجب أن تكون بأشخاصها أزلية.

وقد تنبه بعض الباحثين المسيحيين الى إشكال عقلي جوهري في مسألة الثالوث

والتجسد فتساءل : كيف يمكن لكائن متناه أن يدرك الاله غير المتناهي؟ ألا يصير الله متناهيا على الأقل في إمكانية تقبله من قبل الإنسان؟ :"بحسب المفهوم المسيحي، في شخص يسوع المسيح ثمة إتحاد حقيقي بين الله والإنسان. ولكن اذا كان لا بد لكلمة الله ان تصل كاملة الى الانسان فهذا يشترط أن يمنح الله نفسه الانسان امكانية تقبله وإدراكه،بل أن يكون الله هو نفسه إمكانية مجيئه في الانسان ، في هذا السياق، فسر كبار اللاهوتيين من آباء الكنيسة آية المزمور:" بنورك نعاين النور"(مزمور ٣٥:١٠) وهذا يعني أن النور، الذي هو الله الذي يأتي الى الانسان، لا يمكن أن يراه الانسان الا في النور الذي هو الله نفسه في داخل الانسان . هذا النور الإلهي الذي فيه يمكن إدراك كلمة الله كما هي يدعى في التراث الكتابي واللاهوتي الروح القدس"(٢٣).

الا انه أجاب عنه بقوله : ان المفهوم المسيحي لاتصال الله اتصالا ذاتيا بالانسان ينطوي على ثلاث نقاط :"

أولا: إن الله اللامتناهي الآب هو الذي بكلمته يتصل بالإنسان اتصالا كاملا لينشئ معه اتحاد محبة .

ثانيا: كلمة المحبة هذه في صورتها السامية التي لا يمكن تجاوزها لم تعد كما كانت سابقا مجرد لمعان جزئي وظرفي لكلمة الله، بل هي الله نفسه من حيث هو كلمة . . والذي في يسوع اتخذ طبيعة إنسانية، وحياة إنسانية يظهر فيها الله بشفافية كاملة.

ثالثا : ان تقبل كلمة الله هذه التي هي الله نفسه، يتم في الانسان بطريقة الهية؛وهذا يعني أن التقبل الذاتي لكلمة الله هو نفسه أيضا الله: انه الروح القدس "(٢٤).

فانظر الى هذا الجواب الذي يعتبر ان الله يمكنه ان يفعل هذا المستحيل،مع أن المستحيل مما لا يمكن في ذاته ان يقع فكيف يصير المستحيل بإرادة الله تعالى ممكنا ، فهل يمكن لأحد ان يدعي امكانية الجمع بين النقيضين؟!

خلاصة الكلام اننا لم نجد في أدلة التثليث التي تذكر عادة ما يمكن أن يعتبر دليلا عقليا عليه أو على امكانه، وكل ما قدم حتى الآن انما هو مقترحات أوتصورات عجزت عن تحقيق هدفها، فلا الفكرة اقتربت من الأذهان، ولا سدت الثغرة التي راموا سدها .ولذا يعترفون بكل وضوح بالعجز عن تقديم دليل عقلي كاف،وليس ذلك لقصور في البيان والمعرفة، بل لعدم إمكان العثور على هكذا دليل. ولذا نجد التركيز في كلمات اللاهوتيين المسيحيين السابقين والمحدثين على نصوص يسهل المناقشة في دلالتها، فقد استدلوا على أن المسيح ابن الله الأزلي بمثل ما يحكونه عن صوت من السماء عن معموديه المسيح يقول:

" هذا هو ابني الحبيب الذي سررت به " (متى ٣ : ١٧)، كما استدلوا على ذلك بوساطة القيامة من الأموات وبصعوده إلى السماء[٢٥].

وهذا الدليل مردود من الأناجيل نفسها، اذ استعمل لفظ الابن في غير السيد المسيح(ع)، كالملائكة والمؤمنين، فإذا كان لفظ الابن يدل على ذلك المقام للزم الشمول للملائكة والمؤمنين، وان كان لا يدل في حد ذاته سقط الاستدلال لعدم وجود أي اضافة كلامية تدل على الفرق .

ويستدلون ايضا بقول يوحنا في وصف المسيح : "في البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله ... كل شئ به كان ، وبغيره لم يكن شئ مما كان . والكلمة صار جسدا ، وحل بيننا، ورأينا مجده مجدا" (يوحنا ١ : ١ ، ٣ ، ١٤) . وبما يرويه متى : "فأجاب رئيس الكهنة وقال له: استحلفك الله الحي أن تقول لنا : هل أنت المسيح ابن الله؟ قال له يسوع أنت قلت" (متى ٢٦ : ٦٣) وبما جاء في أعمال الرسل: "أن فيليبس أحد الحواريين كان يسير مع خصي فمرا بماء،فطلب الخصي من فيليبس أن يعمده،فقال فيليبس[٢٦]: إن كنت تؤمن من كل قلبك عمدتك . فقال الخصي : أنا أؤمن أن يسوع هو ابن الله. فعمده فيليبس" . وهذه الدلالات كسابقها لا تشكل دليلا على أي من الثالوث كما هو واضح،خاصة اذا ما تنبهنا الى شيوع لفظ ابن الله او أبناء الله للدلالة على نحو اختصاص بالله تعالى ، بينما الاناجيل مليئة بمايدل على التوحيد من غير تثليث،وعلى أن عيسى (ع) نبي من الأنبياء، ففي إنجيل متى : "هذا يسوع النبي الذي من ناصرة الجليل" (٢١: ١١). ولوقا : "فأخذ الجميع الخوف ومجدوا الله قائلين قد قام فينا نبي عظيم" (٧ : ١٦) . ويروي يوحنا : "إن هذا هو بالحقيقة النبي الآتي إلى العالم" (٦ : ١٤ و ٧ : ٤٠) . ويروي يوحنا عن عيسى : "وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعه من الله" (٨ : ٤٠) . ويروي يوحنا كذلك عن عيسى : "إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم". (٢٠ : ١٨) . بل في رسالة أعمال الرسل ان موسى انما بشر بنبي آخر لا أكثر، "فان موسى قال للآباء : إن نبيا مثلي سيقيم لكم الرب إلهكم من إخوتكم ، له تسمعون في كل ما يكلمكم ، وكل نفس لا تسمع لذلك النبي تباد من الشعب وجميع الأنبياء أيضا من صموئيل فما بعده ، جميع الذين تكلموا ، سبقوا وأنبئوا بهذه الأيام" (٣ : ٢٢ - ٢٤)[٢٧].

وعلى كل حال فالتاريخ يؤكد أن عقيدة التثليث لم تظهر مع ظهور المسيحية،وإنما أقرت بعد أكثر من مئتي سنة من ولادة المسيح (ع). وهذا يفرض تساؤلا كيف يمكن ان لا يكون لهذه العقيدة أي رواج في عصر نشوء المسيحية ما دامت تشكل جوهر المسيحية؟ مع أن ما

يشكل جوهر الدين لا بد أن يكون أكثر شيء تم التصريح به والدعوة اليه،لا أن يترك من غير تصريح،ولا دلالة واضحة ولا تركيز عليها ثم نأتي بعد سنين طويلة لنحاول الاستدلال عليه من بعض الفقرات المتناثرة في إنجيل هذا أو ذاك.

إن ظاهرة الغلو برزت ايضا في المجتمعات المسلمة الا أن البحث معها سهل يسير من خلال العقل،والرجوع الى النصوص القرآنية،والنصوص الثابتة عن النبي (ص) والأئمة (ع).كما انها بقيت ظاهرة شاذة بخلاف المسيحية التي صارت هي الحالة العامة،ومنكر الثالوث والقائل بالطبيعة الواحدة صار هو الشاذ .

لقد اتضح ان المسيحية في دعوتها الى دينها لا تعتمد على أي دليل عقلي محكم ومتين،يرتكز على أسس برهانية كافية وافية ، وهم يقرون بذلك ، وانما تعتمد على نصوصها، وهذا خلل منهجي آخر، إذ لا يمكن إثبات المسيحية من خلال نصوصها ، الا ان هذا المنهج قد يكون مبررا في اطار الحوار بين الأديان،لأن المسلمين يعترفون بالمسيحية كما يعترفون باليهودية،على هذا يفترض أن تكون النصوص الدينية المسيحية حجة على المسلم كما انها حجة على المسيحي. وهكذا الحال في النصوص اليهودية ما لم يتم الطعن الصحيح المبين بالبرهان السليم بتلك النصوص او بدلالتها .

الا ان المشكلة كما بينا سابقا في وجود هكذا نص يدل على ما يدعون، وهم عندما يستدلون بتلك النصوص لم يبينوا عن أي فرق بين نص له دلالة محكمة،ونص دلالته بالظهور ، وانما ينطلقون دائما من كون الدلالة محكمة مع ان الدلالة مرتبطة بفهم الانسان نفسه وبين ما يريده صاحب النص، وما يفهمه الإنسان علاقة تطابق تارة،واختلاف تارة أخرى، فلا بد من رسم الضوابط التي تجعلنا بمنأى عن الاختلاف بين الفهم والمراد، وهذا ما لم يتم التأسيس له عند الاستدلال بالنصوص . ومن الفوارق الأساسية بين النص المحكم والنص الظاهر أن الأول لا يمكن الا ان يكون مرادا ولهذا لا يمكن ان يصطدم مع أي بداهة عقلية او دينية بينما الثاني قد يكون الظاهر مرادا، وقد لا يكون، وحسم الأمر يرتبط بالقرائن وعدمها، ولذا يمكن للظاهر ان يصطدم مع احدى البداهتين، ويكون هذا بحد ذاته قرينة عقلية على عدم إرادته، وقد اشتغل علماء الإسلام كثيرا على مسألة النص والظاهر للحاجة الملحة التي يتطلبها بحث الدلالة واكتشاف المقصود .

لا يوجد في الأناجيل الأربعة أي نص محكم، وتصريح صريح بالظهور الإلهي في الإنسان الى حد التجسد أو التوحد أو الحلول، ولذا لم يذكر أي من الباحثين المسيحيين هكذا نص ، فالنصوص المعتمدة عندهم على مسألة التجسد والتثليث إنما تدل بالظهور

واحيانا بالتلميح وهو أقل شأنا من الظهور ، يشبه حالهم من هذه الجهة حال من يريد ان يتمسك بحرفية النصوص القرآنية في مثل قوله تعالى: " يد الله فوق أيديهم " فيزعم ان لله تعالى يدا جسمانية سواء كانت كأيدينا ام مختلفة عنها، مع تعطيل للعقل عن أي دور في تقويم الدلالات والأفهام .

ثم إن هنا مشكلة أخرى تتعلق بالاستدلال بالنصوص؛ ذلك أن الأناجيل الأربعة كتبت بعد السيد المسيح (ع) بعضها كتب بعده بعشرين سنة، وبعضها كتب بعده بسبعين سنة، فهي اذاً ليست نص السيد المسيح (ع)، بل نص بعض تلامذته؛ أي ما فهموه من السيد المسيح (ع). وإثبات الانطباق التام بين أقوال السيد المسيح (ع). وبين ما ينقله تلامذته يتوقف على إثبات عصمة التلامذة من كل خطأ وسهو وكذب ، ولكن إثبات العصمة لا يكون بالنص على عصمتهم او على كونهم الأوصياء ، وليس لدينا نصوص خارج الأناجيل حسب ما يقولون هم أنفسهم؛ فإذا أريد اثبات النص على العصمة او الوصاية من خلال ما كتبه التلامذة فهذا من اثبات الشيء بنفسه فهو نحو مصادرة ودور، والنص ليس معجزا حتى يكون إعجازه دليل صحته. أما ادعاء : "ولما كتب الآباء والأنبياء والرسل أسفار الكتاب المقدس كانوا مسوقين من الروح القدس الذي أرشدهم فيما كتبوا وعضدهم وحفظهم من الخطأ وفتح بصائرهم في بعض الحالات ليكتبوا عن أمور مستقبلة" . فإنه يبقى مجرد ادعاء يجري عليه عين ما تقدم .

وبهذا ينتفي الأساس الذي بني عليه التثليث ، ونحن وان كنا نؤمن بالمسيحية، الا اننا إنما آمنا بها من خلال القرآن، ولولا القرآن فلا دليل لدينا عليها. واذا كان إيماننا بها من خلال الإيمان بالقرآن كان يمكننا محاكمة المسيحية على ضوء القرآن ، ولا سبيل لنا للإيمان بالمسيحية بالنحو الحاضر بمعزل عن القرآن؛ لأننا نحتاج الى طريق عقلي لا يقبل الشك وهو ما لا نجده بين ايدينا اذ لا يكفي للايمان بالشيء إمكانه بل لا بد من اثباته. أما القرآن فإنه يمتلك كل المواصفات التي تجعل العقل يذعن له أهمها صفة الإعجاز .

وربما كان فشل إثبات عقيدة التثليث نفسها أمام العقل أحد الأسباب الذي دعا الباحثين الى اعتبار الإيمان لا علاقة له بفعل العقل، وأن ليس في الإيمان الا تعبد فكان أن ظهرت دعوات لضرورة إعطاء فسحة للعقل تختلف عن فسحة الإيمان . وهذا التمييز ليس له أي صدى في الإسلام، لأن العقيدة التي لا يمكن للعقل أن يقر بها ويرى استحالتها هي عقيدة لا يمكن أن يدعو لها الإسلام ، وان ايمانا لا يرتكز في أسسه على العقل هو تعبد مرفوض . اما التمسك بالاختبار المسيحي فهو لا يشكل ميزة خاصة بالمسيحية، بل هو أمر

مشترك بين الأديان السماوية وبعضهم قد يرى نيله في البوذية .

يسعى بعضهم للتفتيش عن عبارات بديلة عن عبارة الثالوث ليزيل اللبس الموجود عند المسلمين مع أنه لا لبس في القضية، لأن المسألة ليست مسألة ألفاظ، بل معان ومقاصد، فلو أريد بالثالوث معنى مقبول للعقل اذ ليس في الاسلام مقبولية أخرى لم يكن هناك مشكلة في اللفظ، كما لا مشكلة في لفظ الإبن ان كان له معنى مقصود مقبول واذا كان المعنى غير مقبول، لم ينفع فيه استعمال لفظ " عبد " .

إن القول بتحلي النبي عيسى (ع) بقدرات عظيمة على مستوى الخلق والإحياء وإبراء المرضى ليس قولا مستغربا في عالم الأديان، بل ربما كان من مسلمات هذا العالم، فكل نبي له تلك القدرات أو بعضا منها، الا انه مختلف تماما عن فكرة التثليث والألوهية والعبودية .

إن المتابعة الدقيقة للمعتقدات المسيحية، وكيفية البرهان عليها تكشف لنا عن حجم المأزق، ذلك أنهم يتعاملون مع المعتقدات الأساسية كأنها مسائل تقنينية تشريعية يمكن للكنيسة أن تبت بها من دون أن تخضعها لمعايير العقل السليم. وهذه النمطية كانت ثابتة في العصور الماضية حتى على مستوى العلوم الطبيعية، وقد تمكنت المجتمعات المسيحية من التحرر من سلطة الكنيسة فيها، وبقي لها أن تسعى للتحرر من هذه السلطة فيما كان من سلطان العقل والمعرفة؛ أعني ما ينال المعتقدات الجوهرية لا الفروع الدينية ، وهذا هو الذي يجعل المسيحية تشعر بالتحدي الذي يشكله الاسلام في طريقها للوصول الى العقول والنفوس .

الهوامش

(١) قاموس الكتاب المقدس – دار مكتبة العائلة، ط ١٣، ٢٠٠٠ م، س، ص ١٠٧

(٢) قاموس الكتاب المقدس – م، س، ص ١٠٨

(٣) قاموس الكتاب المقدس – م، س، ص ١٠٩

(٤) مجموعة: "قاموس الكتاب المقدس" دار مكتبة العائلة، ط ١٣، ٢٠٠٠، ص٢٣٢ .

(٥) قاموس الكتاب المقدس – م.س. ص ٤١٤

(٦) م.ن، نفس المعطيات.

(٧) قاموس الكتاب المقدس – م.س. ص ٢٣٢

(٨) أضواء على المسيحية – متولي يوسف شلبي ص ٩٥

(٩) أضواء على المسيحية ، م.س، ص ٩٥

(١٠) احمد شلبي نقلا عن A . Short History of the World ص.ص.٠ ١٧٠– ١٧٨ .

(١١) شلبي، احمد: "المسيحية" مقارنة الأديان، مكتبة النهضة المصرية، ط١٠، ٢٠٠٠، ص١٢٣.

(١٢) أضواء على المسيحية – متولي يوسف شلبي ص ١٠٠

(١٣) أضواء على المسيحية، م.س، ص١٠٢

(١٤) أضواء على المسيحية، م.س، ص ١٠٢

(١٥) أضواء على المسيحية، م.س، ص ١١٥

(١٦) تسركر، هانس:"هو الله أحد–لا تشركوا به شيءا"، الإسلام يسائل المسيحية، إشراف ثيودور خوري،مشير عون،المكتبة البولسية،٢٠٠٠،ص٧٧.

(١٧) م.س، ص ٥٨.

(١٨) م.ن، ص ٧٨.

(١٩) الاسلام يسائل المسيحية، ص ١١٧

(٢٠) غرسهاكه،جبرت:"الثالوث جوهر الايمان المسيحي" ضمن العقيدة المسيحية في لقاء مع الإسلام، اشراف عادل ثيدور خوري،المكتبة البولسية،٢٠٠٢،ص.ص ٣٣٨–٣٣٩.

(٢١) م.ن،،ص ٣٣٩.

(٢٢) جسبرت"العقيدة المسيحية في لقاء مع الاسلام" م.س، ص ٣٤٧

(٢٣) م، ص ٣٤٨

(٢٤) م، ص ٣٤٩

(٢٥) قاموس الكتاب المقدس م. س، ص ١٠٨

(٢٦) مقارنة الأديان ، المسيحية ج ٢، ص ١٢٧

(٢٧) مقارنة الأديان ، المسيحية ج ٢ ، م.س، ص ١٢٨

(٢٨) قاموس الكتاب المقدس م.س، ص ٤١٤